الدكتور أبو ميار

الاختصاص: جراح عظام

السن: 35

لم تُستخدَم الأسماء الحقيقية للأفراد في هذا البوست حرصاً على سلامتهم.

"**ماني خايف من الموت – بس خايف إخسَر إيديّ، وكل شغلي بإيديّ.**"

قرر الدكتور أبو ميار، بعد أن احتملَ الحرب أكثرَ من سنة، أن يأخذَ أسْرتَه خارج سوريا وينتقلَ بها إلى بلدةٍ بتركيا قرب الحدود السورية. ولم يُثنِهِ خروجُه من سوريا عن التزامه تجاه ناسِه، فتابع خدمتَهم في المشافي الميدانية – التي شهِد استهدافَ ومهاجمةَ اثنين منها.

وبعد أن اطمئن على زوجته وأطفاله بتركيا، عاد أبو ميار إلى حلب ليعملَ في أحد المشافي الميدانية. عمل هناك 40 يوماً إلى أن اكتَشفتْ قوات النظام مكانَ المشفى، فقصفتْه في تشرين أول 2012؛ فأصيبَ مبنى المشفى إصابةً مباشرة بصاروخٍ أتى عليه. هُرِع أبو ميار الذي كان وقتَها في المشفى إلى القبو فَزِعاً من الانفجار وقَبَع هناك تحت الأرض بطابقين حتى انهارَ المبنى. وظل مختبئاً حوالي 40 دقيقة إلى أنْ شعرَ أنّ في إمكانه المغادرة بأمان. وبالرغم من أنه لا يعلم بزملاءَ له قضوْا في هذا الهجوم، فإنه يذكر أنّ مرضى كثيرين لاقَوْا حتفَهم فيه.

وبعد أن دُمر ذلك المشفى بحلب، أسس أبو ميار مع مجموعةٍ أكبرَ من زملائه الأطباء مشفىً ميدانياً على الجانب السوري من الحدود التركية أواخرَ 2012. وقد قُصِف هذا المشفى، الذي ما يزال أبو ميار يعمل فيه، أربعَ مرات، لكنّ المهاجمين كانوا في كل مرة لا يصيبون المبنى الرئيسيَ لحسن الحظ. يعتقد أبو ميار أنهم كانوا يُستهدفون لمعالجتهم جرحى المعارضة. وبات هو وزملاؤه الآن يخشوْن أدنى جَلَبة، لأنها تذكِّرهم بأصوات الهجمات السابقة. يقول "في شعورْ دائمْ بالخوف لأنّو كل اللي بيشتغلوا بِهالمؤسسة مْهَدَدين بالموت، وما مْنعرف إيمتى رَح يجي دورْنا." كما أدى الشعورُ الدائمُ بالخوف لديه إلى اكتئابٍ وقلَق وقِلةِ تركيز أثناء العمليات الجراحية – ما يؤثر على جودة عمله. بل إنه بات هو وزملاؤه أحياناً يخشوْن حتى من مرضاهم أنْ يأتيَ أحدُهم محزَّماً بحزامٍ ناسف لتفجير المشفى.

وبالرغم من أن أبو ميار يدرك قيمةَ ما حققه هو وزملاؤه في المشفى الميداني، فإنه يشكو من أنهم ما يزالون يواجهون عقباتٍ جمة، منها قِلةُ الكوادر أمام العددِ الكبير من المرضى الذي يرِوْن في كل يوم وعددِ المرضى الذين هم بحاجةٍ إلى مختصين. فقِلةُ الموارد تجعل المرضى لا يَحظوْن بالوقت الكافي للمعالجة. وينقطع الكهرباء عنهم في عز انشغالهم بالعمليات الجراحية، ما يؤثر كثيراً على معداتهم وينال كثيراً من قدرتهم على التركيز. يُجري أبو ميار نفسُه ما بين 5 و 10 عمليات جراحة عظمية في كل يوم، أربعة أيامٍ متواصلة – وهو عددٌ مرتفع أنْ يواجَهَ مِن حالات الإصابة في يوم واحد. ويعالِج ضحايا الانفجارات والبراميل المتفجرة والقصف المدفعي وغيرَ ذلك من إصابات. ويقول إنه وزملاءه يشعرون بالوحدة والعزلة، ولا يجدون وقتاً لمجالسة الزملاء والأصدقاء؛ ويعانون فراغاً روحياً إذْ لا يجدون وقتاً للصلاة؛ إضافةً بالطبع إلى ما ينالهم من إعياءٍ بدنيٍ عظيم من ساعات العمل الطويلةِ المضنية.

فَقَدَ أبو ميار كلَ إحساسٍ بالبهجة والسعادة في عمله، وما يزال يقضي ساعاتٍ طويلة في كل أسبوع ليَعبُرَ الحدود إلى سوريا لخدمة ناسِه. وغالباً ما تشتمل رحلتُهُ المضنيةُ تلك على انتظارِ ساعات ليجدَ وسيلةَ نقلٍ تُقِله أو لإتمام إجراءات العبور الرسمية. ويُضطر أحياناً، عندما لا يجد وسيلةَ نقل، إلى المشي مسافةً طويلة، أو التعلقِ بظهرِ حافلةٍ عابرة.

قال لنا "بتودعني مَرتي وهيّي عَم تبكي لأني بترُكا هيّي وأولادي التنين أربع تيّام بالأسبوع. وهيّي هلّأ حامل بشهرا الخامس ببني التالت. صعب كتير تترُكْ مرتَكْ ببلد غريب وتْروحْ تشتغلْ ببلدْ تاني. بتصدِّق، وأنا بطريقي للحدود التركية، بتنزلْ دموعي غَصبِنْ عني على فراق الأهل. لأني ما بعرف هل رَح شوفُن مرة تانية ولّا رَح مُوت بسوريا." وبعد أن يكملَ أبو ميار عملَه في الداخل السوري كلَ أسبوع، يقوم برحلة العودةِ المضنيةِ ذاتِها إلى البيت للقاءِ عائلتِه مرةً أخرى بتركيا.

عمل أبو ميار قبل الثورة السورية في منشآتٍ طبية شتى: فعمل في مشفىً حكوميٍ بدمشق، وفي عيادته الخاصة، ومناوِباً في بضع مشافٍ خاصة. عندما قص علينا قصتَه، كان المشفى الحكومي الذي عمل فيه ما يزال يعمل، لكنه لا يدري ما الوضع بعيادته. أما المشافي الخاصة التي عمل فيها مناوباً فصارت أهدافاً للنظام؛ فدُمرَ أحدهما تماماً، واستولت الحكومة على الآخر.

عندما سُئل أبو ميار لِمَ أصبحَ طبيباً، أجاب أنّ الطبيب يمكن أن يجدَ عملاً في أي مكانٍ في العالم. وقال "الطبيب مِتل ما يكون الواحد عَندو عدة شغل بياخُدا معو وين ما راح." لعله لم يكن يدرك عندما اختار مهنتَه هذه كم سيكون الشعب السوري في أمس الحاجة إلى عُدتِه تلك.